لادن (١)

أيـار ...
شاحب برتقال البيارات ، اصابوا مقتلا منه !
اذن نزف لونه ...
تباعدت سنابل حقولك بعضها عن البعض ! فرقة المقاومين في هذه الامة هكذا ... وليكن بعدها لا نستبعد زرقة سمائنا ... ، على قدر ما استطاعوا بذروها ...
و « فلاحك » أتعلم ؟
« فلاحك » لم يعرف ان قدره ... قدر التصاقه ، بالأم ، النهائي سوف تنقطع اوصاله بعد عشرة ايام ونيف !! .. سمرة ارضه الى ارجوان غامق ، بل طيف دموي أحال اداءه لقبلة احتضار سال منها شهد احمر ، لم يلبث ان انعكس في الشمس أنى اشرقت او تمهلت في التواري خلل الاوراق الثمرية ...
بقيت هذه الاوصال تشد بعضها بخيوط حرير ، تحيل الالم لذة ... وتصعد ـ ابدا ـ اللذة في الالم .
ومذ ايار ذاك : كان فلاح صفد يعلق عينيه على قرص الشمس حتى اللحظات كلها ، علها تلقي بارجوانها ... وتعود .
خضراء ، خضرة حبيبة السياب ...
عميقة عمق عيني « الزا » (٢) تضيع فيهما كل الذكريات ، وترشح سماء ربيعية الوهج ...
كل الصباحات رافقته لحقله :
كركرات الاطفال وهم يلاحقون الفراشات ،
انهار شققتها سيقان السنابل ،
كل الاحجار التي ترسم دوائر صغيرة لا تلبث ان تتسع ... تتسع حتى التلاشي في المياه ...،
رائحة الخبز في تنور القرية ...
تلك لحظات الصباح ... لحظات الشروق .
هذه لحظات الاصيل ... لحظات الغروب ... تلك ... متعته : وحده الالم واللذة ايضا... الواقع والذكرى كذلك ...
امتزاج ذلك الصفاء الذهني بصخب تلك الليلة الأيارية العاهرة ...

كل المشاوير تلك ... كل الحنين ذاك ،
كل ذلك كان فرشاة مغمسة في كل الالوان في لحظة خطو لرسم مسيرة حياته الكفاحية المقبلة حتى العبادة ، والولوع في الجهادية ... حتى الذروة ...
« في الصمت ... كان فضول الاخرين ... »
في كل الاوقات
في الفصول المعصوبة ...
وفي الزمن المقتول كانت نفسه العذبة والمعذبة تدر خيرا وحلما جميلا ... لا تطاله الدنيا ...
ما عدا ذلك
كان الشعر ينساب عليه من روح المستقبل ...
ورؤياه تتساوى في التوجه بوحدة غير ميكانيكية ..
نحو الجذر في اعمق الاعماق ...
باتجاه الاعلى نحو السديم اللامرئي ...
هذان الاتجاهان يشدهما اصرار غريب .. عنيف .
بها عنفوان ليس هشا لم يزده توالي السنين الا توهجا ... وتفجرا اصرار التحدي وعنفوان الايمان
يقينا لا احد يدري بماذا كان يفكر الرجل
الا ان الاصداء كانت تؤكد ان صورا ترى امام عينيه في كل الايام ...
ارضه الكسيرة ، ابناء الوطن في تصبيحهم الشجر المجبر على وقف عطائه ، عيون الاطفال المحدقة ...
الا ان الاصداء تواصل تأكيدها :
انه على الدوام يغالب دمعة تفرزها مآقيه
يستبصرها متألما غير متعب ...
كان حيويا حتى كان النبض الحيوي قد تمرس فيه ، ووجد فيه تلك المنطقة الآمنة ، التي يركن اليها ... كان واسعا حتى تصور الاخرون انه قد توزع فيما بينهم اينما ذهبوا او اقاموا ...
كان عظيما حتى كان يخشاه كل الظلام ، الوفاء ضوؤه ، الحب جسده ، الرجولة ، التنظيم ، الصبر ، الصمت ، الايثار ، التواضع والصدق ، تلك مآثره ، وذلك ما ادخره ، ارثا لمن يريد ان يرث ، لمن يريد ان يخطو ... نحو الام المعطاء ، نحو الالهي المزروع في هذا الكوكب .. انه « لادن » فلسطين
لادنها المستمر ...

"باقر عبّاس"

---

(١) نبات له القدرة ـ اينما زرع ـ في ان يترك مسامير خضراء تصله بالمكان الذي هو فيه ...
(٢) الزا : رفيقة وحبيبة وزوجة الشاعر الفرنسي التقدمي « لويس أراغوان » كتب بها وبعينيها اجمل القصائد مازجا الزا مع الوطن ...